تأسيس القيم*

نقاش إيطالي حول دور الدين

آن ماري روفييلو(*)

ترجمة: الحسن مصباح(**)

مراجعة: عبد الرحيم تمحري(***)

"بماذا يؤمن الذي لا يؤمن؟" كان هذا موضوع نقاش ساهم فيه مجموعة من الفلاسفة مؤمنين وغير مؤمنين، ضمن صفحات المجلّة الإيطالية «ليبرال». وسرعان ما إتّسع هذا الحوار ليشمل أساس القيم في العالم المعاصر، وفي هذا البحث تقدّم الباحثة آن ماري روفييلو مساهمة في النقاش، تظهر كيفية تعامل المجتمعات الغربية مع الموضوعة الدينية من خلال المثال الإيطالي.

(*) مدرسة فلسفة بالجامعة الحرة لبروكسيل.

(* *) أستاذ التعليم العالي مساعد-كلية العلوم /جامعة محمد الأول، وجدة /المغرب

(* **) مفتش فلسفة- أكاديمية وجدة /المغرب

يمكن إحياء مسألة القيم التي هي موضع إهتمام منذ فترة، حينما تأخذ شكل نقاش كلاسيكي بين المؤمنين وغير المؤمنين. وهذا ما يمثّل أحد توجهات كتاب لوك فيري،[1] وهو أيضا أحد موضوعات مؤلف جياني فاتيمو (الإيمان بأننا نؤمن)[2].

ولقد بادرت المجلّة الإيطالية "ليبرال"[3] بطرح نقاش واسع حول هذه المسألة من خلال تكليفها الكاردينال "كارلو ماريا مارتيني" بمحاورة "امبرتو إيكو" حول موضوع: "بماذا يؤمن الذي لا يؤمن؟". وبعد هذا التبادل الأولي في وجهات النظر المنشورة في العدد الصادر في شهر فبراير 1996، تدخّل في العدد الذي يليه مجموعة من المثقفين و السياسيين المرموقين في إيطاليا. وقد ختم النقاش بمداخلة جديدة للكاردينال "مارتيني" نشرت في عدد أبريل 1996 [4].

وقد دار مجمل النّقاش في جو منفتح وودّي؛ وعوض توظيف الحوار كسلاح تشهير لهزم الخصم بأية وسيلة كانت، بذل كل واحد من المشاركين ما في وسعه للبرهنة بشكل أفضل على قناعاته، حتى وإن لم يتمكن من إقناع الآخر. وهذه الأفكار والبراهين، والبراهين المضادة المطروحة في النقاش، وكذلك التصورات التي تمفصلت حولها مختلف القناعات والتوجهات كانت ممثّلة للكيفية التي تعالج بها حداثتنا الغربية عادة هذه المسألة. وقد بدا لي أنه من الأفضل تقديم صورة عن هذا النقاش للقارئ الفرنكفوني؛ وذلك بإبراز النّقاط القوية فيه من جهة أولى، ومن جهة ثانية إعادة مساءلة بعض الأدلّة، وخاصة بعض التصوّرات التي ظهر لي أن بداهتها تعرقل النقاش حول القيم عوض أن تدفعه إلى الأمام.

التجربة المشتركة

عمل "أمبرتو إيكو" ومُتداخلان إثنان على إزاحة سوء فهم يحرف في كثير من الأحيان هذا النوع من النّقاش: إنه ذلك الوهم القائم على النظر إلى المؤمنين وغير

المؤمنين كما لو كان الأمر يتعلق بـ"كيانات منفصلة دائما ومتقابلة" (كلوديو مارتيلي). ويذكرنا "مارتيلي" بأن التنوير لم يكن أبدا النقيض الخالص والبسيط للمسيحية، بل إنّه نشأ في رحمها كمحاولة للبحث خلف العقائد والأفكار المسبقة عن النواة الإنسانية للرسالة المسيحية. ويعتبر "فيتوريو فوا" من جهته أن مواجهة المؤمنين وغير المؤمنين ليست السبيل الأمثل للإستقصاء في أسس القيم؛ لأن التقابل ليس بين المؤمنين وغير المؤمنين، ولكن بين كيفية الإيمان أو عدم الإيمان. زيادة على ذلك، فإن هذا الخط الفاصل يخترق كل واحد منا أكثر مما هو تقابل بين فئتين متمايزتين من الكائنات الإنسانية. وللتدليل على ذلك، يُذَكِّرُ "فيتوريو فوا"، - مكتفيا بفرق واحد جوهري-، بكون الأصولية طريقة دوغمائية للإيمان، وأيضاً لعدم الإيمان تقف في مقابل الانتماء الحر للإيمان أو عدمه. وتشكل هذه الحرية في الإنخراط في تجربتنا للديني، أو في غياب الديني من جهة أخرى، الشرط الأول للتفاهم بين المؤمنين وغير المؤمنين. إذاً بمجرد ما ندخل في نقاش حول معنى القيم يتحتّم علينا التسليم بتجربة أخلاقية مشتركة وأساسية، تجد لنفسها على التوالي في العقيدة الدينية، وفي التفكير العلماني تصورات ورموزاً مختلفة لتفسيرها. هذا التفسير، وإن كان منذ البداية يؤثّر بلا شك في التجربة ذاتها، ويمنحها بيئتها المميزة لها، فإنه مع ذلك لا يتمكن من تحديدها كليا.

بالرغم من ذلك، فإن الخلاف الأكثر دلالة الذي كان ولا يزال في أيامنا هذه يقفز إلى الواجهة في أكثر الأحيان داخل هذا النوع من النقاش، هو ذاك الذي يقابل بين المؤمنين وغير المؤمنين. وإذا كان البعض في هذا النقاش الإيطالي قد ذكّر بالتجربة المشتركة، فإن البعض الآخر قد أعاد إنتاج الخط نفسه الفاصل الكلاسيكي. تتمّ المناداة حينا بـ"القيم المتعالية" "Valeurs transcendantes" أو "الميتافيزيقية"، وحينا آخر بالإنتاج الخاص للقيم من لدن الإنسان وللإنسان. بهذا المعنى يصبح تعالي القيم أمرا خارجيا يستلزم الطاعة، بينما ينسب إنتاج القيم "المحايث" "immanente"

لسلطة الحرية لدى الإنسان، حيث لا يعني الإنفتاح على التعالي من وجهة النظر هذه إلا تبعية. لكن ماذا ينبغي أن نفهم من "قيم متعالية"، "مطلقة" أو "ميتافيزيقية" من جانب، وماذا يمكن أن نفهم من الجانب الآخر "قيم منتجة بحرية من لدن الإنسان" ؟ ألا يتطلب منّا النوع الأول من القيم غير التسليم والطاعة؟، ثم عن أي "حرية" يتعلق الأمر في الموقف الثاني؟ هل يمكن إختزال الحرية التي تستوجب أساساً بعد الإختيار الحر في هذا البعد الوحيد؟.

إذا كان المقصود بـ"قيم متعالية" هو تجاوز رغباتنا ومصالحنا الذاتية، وتبنّي مرجعيات وطموحات وواجبات غير أنانيتنا وإرادتنا الإعتباطية وهوانا الخاص، فإن غير المؤمنين يقتسمون مع المؤمنين هذا الإنفتاح نحو تعال يأخذ طابع تعال ذاتي "autotranscendance"؛ وهذا الأمر لا يجد مصداقيته فقط في التجربة الأخلاقية، ولكن أيضا في التجربة الجمالية، وفي تجربة الحقيقة، وفي هذه التجربة الإنسانية الجوهرية التي هي تساؤل وقلق حول المعنى، معنى الحياة، معنى الوجود، إلخ... وفي هذا الصدد يذكر "أمبرتو إيكو" أنه "توجد أشكال من التدين، وبالتالي أشكال لمعاني المقدّس، والحدود "Limites"، ومن التساؤل والانتظار والوحدة مع شئ يتجاوزنا، حتى في غياب الإيمان بألوهية مشخّصة وعناية ربانية". ويمكننا أن نضيف أن مثل هذه التجارب لا يمكن أن تترجم بمعنى "الحرية" الخالصة، ولا بمعنى القابلية السلبية. إنها من قبيل قصدية تتعالى على هذا التقابل، والتي هي قوة دافعة نحو الذات لا يمكن مقاومتها، وفي نفس الوقت إندفاع إيجابي نحو آخر غيرنا.

يتموقع "مارتيني" منذ البداية ضمن التقابل الكلاسيكي حين يقول بعدم كفاية "تأسيس إنساني خالص" للقيم؛ وهذه الرؤية تبدو في ظاهرها سليمة إذا كان يقصد ذلك "الإنساني" الذي لا ينكر كل تعال إلهي إلا ليعطي لنفسه الحق في الإنكار الجذري لكل بعد للتعالي الذاتي لدى الإنسان، مختزلا هذا الأخير في "طبيعيته"

(الحتميات بمختلف أنواعها، وبالخصوص المذهب الطبيعي الجديد الذي يعيث فسادا في الفترة الأخيرة)، أو ذلك التيار الذي يحكم بجودة كل ما يصدر عن الإنسان بكل "حرية". لكن بمقابل هذه النزعة "الإنسانية" توجد نزعة أخرى، هي نزعة الإنسانية المستقلة أو "الإنسانية المتعالية"[5] التي تأخذ بعين الإعتبار ما في الإنسان من بعد مقدّس، - وهو ما نسميه كرامة-، بعد أن ينفلت من كل محاولة لصياغته في شكل معرفة موضوعية "objectivation". ويفرض هذا البعد نفسه علينا على نمط الواجب اللامشروط؛ أي على النمط الذي لا قدرة لنا على تغييره على مرادنا، لأننا أو بما أننا نقصد هذا البعد بهمّة، إنطلاقا من قوانا الذاتية؛ وهو ليس موضوع واجب ملحّ إلا أنه موضوع رغبة أساسية[6]. وهذه النزعة الإنسانية هي أكثر قرباً إلى ما عبّر عنه "مارتيني" في تدخّلاته، من النزعة "الإنسانية" العدمية التي إنتقدها هو نفسه.

إذاً ما الذي يجعل الفارق الذي يفصل "مارتيني" عن غير المؤمنين في مجال القيم أكثر أهمية وأكثر وضوحا في نظره؟ هل هناك فعلا طريقتان مختلفتان جذريا لعيش التجربة الأخلاقية بحسب إيماننا أو عدم إيماننا، إذ تجد الأولى في الإيمان بالله قاعدة راسخة بينما تسبح الأخرى في فراغ نتيجة غياب أيّ أساس متعال ؟ إذا كان الإلهي يقطن التجربة الأخلاقية للمؤمن، فعن أي نوع من الحضور يتعلق الأمر بالإلهي هنا؟، وما هو رد فعل المؤمنين وغير المؤمنين أمام ظلم ملموس معين ؟ هل يتلقى المؤمنون وحي الأوامر الإلهية كحقائق تحلق داخل تعال نوراني يعلو على الوضعيات الإنسانية الغارقة في ظلمات المحايثة؟ وهؤلاء المؤمنون - وهم يقدمون على إصدار الأحكام - أيّ وهم يتجرأون بالحفر في الوضوح المظلم للتجربة الأخلاقية؟، هل يعانون القلق المعرفي حول طبيعة الحضور الإلهي؟ وغير المؤمنين من جانبهم، ألا يجدون أنفسهم في لبس تام طالما لم يتحروا ضمن قوانين الطبيعة أو في قوتهم الفهمية عن إمكانية البرهنة أو الإستنتاج إنطلاقا من حجاج منطقي تام عن حرمة

الإغتصاب مثلا؟، وهل ينتظرون أن يتلقوا من عقلهم العلماني النظري الضوء الأخضر من أجل إبداء سخطهم؟.

يمكن تأويل مقولة كامي "Camus" "أتمرد أولا ثم أبحث بعد ذلك عن مبررات لتمردي". في السياق الحالي بالطريقة التالية: أتلقى أولا في تجربة ما -التي هي شكل جد متميّز من إنفتاحي الحسي والمنعكس على العالم،- وحيا أو شهادة على المعنى أو اللامعنى الأخلاقي لحركة ملموسة وخاصة على الدوام-، وهذه التجربة هي ذاتها بالنسبة للجميع، مؤمنين وغير مؤمنين،- ثم أستخلص بعد ذلك من هذه التجربة،- أو أقر بعدم قدرتي على إستخلاص- المبرّر الذي يكون قد سكن هذه التجربة بطريقة ضمنية قصد مفصلته إلى رموز ومفاهيم، ثم أمنحه بعد ذلك معنى دينيا أو علمانيا؛ وذلك بدمجه ضمن تجربة أوسع لإنفتاحي الخاص على الوجود كمؤمن أو غير مؤمن.

هل تحتاج القيم إلى تأسيس؟

أخذت المسألة منذ البداية بالنسبة للكاردينال "مارتيني" ولمحاوريه صيغة التساؤل الكلاسيكي: هل هناك أساس للقيم ؟ إذا كان الرد بالإيجاب فما هو هذا الأساس ؟ أو بتعبير آخر: "ما هو المبرّر النهائي" الذي يمكن أن يُمنح لفعل أخلاقي بالنسبة لغير المؤمن؟

يُذكِّر "مارتيني" في تدخله الثاني بأن المبدأ اللامشروط بالنسبة للمسيحيين هو إحترام كرامة الشخص، وهو نفسه المرجع الرئيس للغالبية من غير المؤمنين. غير أن هذا المبدأ يبدو غير كاف بالنسبة لـ"مارتيني"، حيث يتساءل عن ما يؤسّس مبدأ كرامة الإنسان نفسه. لكن ماذا يعني "أساس" حين يتعلق الأمر بقيم ؟ أليست المسألة بالتحديد هي معرفة ما إذا كان مبدأ كرامة الإنسان في حاجة إلى تأسيس؟ على الأقل

إذا كان المقصود بذلك البحث عن مبرّر لها (أي الكرامة الإنسانية) خارج ذاتها. ألا يتنافى البحث عن أساس لمبدأ كرامة الإنسان من هذا القبيل بالتحديد مع البعد اللامشروط الذي نسعى للإحتفاظ له به ؟ يمكن أن نرد على "مارتيني" بسؤال آخر: كيف يمكننا البحث عن مبرّر إدانة الشر في موضع آخر سوى في الشر الأخلاقي نفسه، وعن المبررات الكافية لتمردنا خارج المعاناة الأخلاقية للإذلال والمهانة ؟.

حينما يرى "مارتيني" ومؤمنون آخرون في كرامة الشّخص بعدا محترما لأن الله وضعها في الإنسان، فهذا يعني أحد الأمرين: إما أن الشخص الإنساني ليس حاملا في ذاته هذا البعد المحترم، ولا ينال هذا الإحترام إلا من حيث إحالته إلى إرادة آخر متعال بشكل مطلق. وفي هذه الحالة سيكون هذا إنكاراً لكرامة الشخص الإنساني؛ وإما أن هذه الآخرية "Altérité" هي لله نفسه، وهي آخرية في الإنسان ومن الإنسان؛ إذاً فهذا "الإلهي" سواء أكان تعاليا إلهيا أو فقط تعاليا ذاتيا، لن يغير شيئا في قضية القيم. هل الله يتجلّى للمؤمن في إنسانية الإنسان الآخر باعتباره "أساسا" له، أو بالأحرى ألا يتجلّى بوصفه "وجها للآخر" نفسه، حين يبرز كاستفهام مطلق ؟ وحين يوحّد الفكر بين الله والأساس، ألا يرضخ هذا الفكر في هذه اللحظة لنوع من التدليس الطبيعي، حيث ينزلق من وضع "بما هو" en tant que إلى موقع التبرير المتمتع بامتياز خارج التجربة الأخلاقية بكل ما يشكل جوهر هذه الأخيرة؟[7].

يثير "إمانييل سفرينو" الإنتباه إلى الطابع المتناقض لمحاولة التأسيس: فمن جهة يعترف "إيكو" و"مارتيني" كل بطريقته الخاصة بالبعد الملغز في أصل القيم. ومن جهة أخرى يحاول كل واحد منهما تبرير هذا اللغز. فـ"مارتيني" يتحدث عن "**لغز** متعال كأساس للفعل الأخلاقي". لكن إذا تعلق الأمر بـلغز، فلا يمكن أن يكون "أساسا جليا". بينما يقرّ "إيكو" من ناحيته في السطور الأخيرة لتدخله بأن معنى القيم يتعلق بـ"لغز" طبيعي؛ وهو بالنسبة له لغز متعذّر تعليله من وجهة نظر قوانين الطبيعة

المعروفة لدينا، بل يرى فيه تعبيرا عن ما فينا من "لغز معجز"[8]. إلا أن ما يثير الإستغراب لدى "إيكو" هو سعيه لإختزال القيم في منتوج للطبيعة قابل للتفسير في جوهره من خلال قوانينها. وسيجد في هذه النقطة سندا من طرف "أوجينيو سكالفاري" الذي يسلم بنوع من "حيل الطبيعة" التي تمنح الطبيعة من خلالها لنفسها في القيم وبالقيم الوسائل اللازمة لتحقيق غايتها الخاصة في استمرار النوع البشري. الأكثر غرابة من هذا كله، هو أن هؤلاء الذين يتبنّون هذه النظرة الطبيعية للقيم يحجمون عن الإندهاش أمام هذه "الطبيعة" التي تصبح فوق-طبيعة "Surnaturelle"؛ لأنها تمتلك - في نظرهم إنطلاقا من شرعيتها المادية- الحتمية - هذه القدرة غير المفهومة على إنتاج ما ليس إلا آخَرَها: الحرية نفسها أو الأكثر غرابة أيضا وهم الحرية[9].

كان الكارينال "مارتيني" على حق إذاً حينما لم يحمل على محمل الجد "الأسس الطبيعية" التي قدّمها له "سكالفاري" وغيره.

إذا أردنا أن نحمل على محمل الجد مسألة القيم، فعلينا أن نؤمن كما يقول "مارتيني" بالطابع الملزم أو المطلق للواجب، لكننا نرى خلافا لـ"مارتيني" أن هذا الأمر لا يعني سوى شيئا واحدا و هو أن الواجب يحمل مبرّر وجوده في ذاته. أن نحمل على محمل الجد مسألة القيم يعني، إعتبار أن الغش والإذلال والجريمة تظل شراً سواء أكان الله موجودا أم غير موجود؛ ويعني أيضا أن إحترام الكرامة الإنسانية تظل واجبا مطلقاً سواء أكان الله موجودا أم لا ، وسواء أوجد عقلنا النظري معاييرها داخلها أم لم يجد.

إن الأمر لا يتعلّق بأكثر من إتّخاذ التجربة الأخلاقية نفسها "أساساً مطلقاً". وقد كان الكاردينال "مارتيني" على حق حين إعترف بأن إحالة "إيكو" إلى "الآخر في النحن" لا يمكن لها أن تقوم مقام "الأساس المطلق" بالرغم من إقراره بكونها مبرّراً

عميقاً للفعل الأخلاقي. لكنه حين يخلص إلى عدم كفاية هذا المبرّر، فيبدو أن ما يعتبره نوعا من الضعف الأنطولوجي في هذا الحكم -المبرر الأخلاقي عاجز أن يحمل في ذاته معناه الحقيقي-، ما هو ضعف ملكتنا في الحكم على الأشياء اعتبارا لحاجتنا إلى اليقين.

إن كرامة الشخص الإنساني ليست من مستوى الأساس القابل للتعيين، للتأكيد أو الدحض. وإذا تلقينا التأكيد على هذا الأمر فيما هو نوع من الوحي، فإن هذا لا علاقة له بالوحي الذي يبدو أن "مارتيني" يحيل إليه؛ بمعنى ذلك الوحي الذي لا يلزمنا فقط بفعل ما، ولكنه يلزمنا أيضا بأسلوب محدّد للفعل. إنه بالأحرى كوميض ثبت تأثيره فينا،- على الأقل في بعض اللحظات-، وليس كمعين، ولا منهج حياة، ولا ما يفرض علينا إنجازه إلهُنا والآن. زد على ذلك، فإنه يرضي بدرجة أقل غير المؤمنين من الماديين- العقلانيين؛ لأنه لا يمتلك نوعا من الحضور المحسوس أمبريقيا ولا أي واحدة من صفات النتيجة إنطلاقا من حجاج منطقي، ولا يمكنه أن يلبي رغبتنا في تقديم معناه على شكل حقيقة دقيقة تبعث على الإطمئنان.

إن الأصولية هي إدّعاء الفكر عدم منح ثقته للمتطلبات الأخلاقية إلا إذا استطاعت جلب الضمانة الأكيدة على إحتياجها لأساس خارجي لحركتها الخاصة. وهذا الإدّعاء حاضر لدى غير المؤمنين كما لدى المؤمنين على حد سواء. ويعتبر أصوليون أخلاقيون،- أولئك الذين يدعون إمتلاك اليقين الكلي-، أن الله هو أساس القيم، وأيضا أولئك الذين ينكرون كل تعال، بدعوى إمكانية إكتشاف هذا الأساس في شرعية محايثة للطبيعة التي يمتلكون حقيقتها، وهم أيضا أولئك الذين يرفضون أي معنى للقيم بسبب عدم إمكانية العثور على أساس لها بالمعنى المحدّد أعلاه، شاهدين بهذا نفسه على عدم تحرّرهم من الحنين إلى هذا النوع من الأساس. كما يعتبر

أصوليون أخلاقيون كل أولئك الذين يزعمون أنهم قادرون يقيناً على تقديم الحل لهذا اللغز الذي هو البعد الأخلاقي في الإنسان.

إبهام الحكم القيمي:

يتساءل "مارتيني" مندهشا: كيف يمكن لغير المؤمنين، وهم محرومون من المرجعية الإلهية؛ أي ليس لديهم أيّ معيار يقيني لإصدار حكم، أو القيام بفعل أن يقرّروا بيقين أمام حالات واقعية؟، ما هي الغيرية بدون هذه المرجعية؟، ألا يتعلّق الأمر هنا بالفعل بلغز الحرية نفسها؟، لكن هل الحرية أقل لغزاً بالنسبة للمؤمن؟.

لو قام "مارتيني" بمساءلة تجربته الخاصة، كما دعاه لذلك "إيكو" ومتدخلون آخرون، فسيعترف حتما بأن عليه نفسه مواجهة هذا الإبهام الذي يتجلّى لديه في حالات من صراع الوعي وفي معضلات وفي اللاطمأنينة. وسيتأكد من أن المسيحيين بعيدون عن التفاهم بينهم حول طريقة فك رموز ما يتلقونه على أنه نفس الرسالة الإلهية، وسيعترف بأن الله لا يتحدّث إليهم بطريقة مباشرة، ولكن عبر طريق ملتوية، عبر "رموز" كانوا ولا يزالون منشغلين بتأويلها. وداخل الهرمية الكنسية نفسها هناك صراع تأويلات إبتداء من الصراع الكلاسيكي الذي يقسّم الكنيسة إلى تقليديين وحداثيين، وإلى أصوليين ومتسامحين. وهذا النوع من الصراع لا يعيشه المؤمنون فقط. إن الحقائق التي ينادي بها البابا ليست من وحي ذاته فقط، ولكنها ثمرة حمل طويل وتطور العقيدة عبر التاريخ، نتيجة عمل مستمر لإعادة التأويل،-كما يُذكرنا "سكالفاري"-، وكذلك لمداولات مطولة مع الأعضاء الآخرين في الهرم الكنسي، ومع نفسه (على الأقل هذا ما ينبغي أن نتمناه). وأخيراً، كما ذكر بذلك عدد من المتدخلين (إيكو، سكالفاري، مارتيلي) فإن هذا الإبهام كان كبيرا في بعض الأوقات من تاريخ الكنيسة لدرجة أن هذه الأخيرة قامت بعكس جذري لمعنى الرسالة المسيحية باسم

الرسالة نفسها. إن المسيحية كما يلاحظ "مارتيلي" هي أيضاً أبعد من أن تمثّل "إيديولوجية متراصة ومتجانسة". وهذا ما يشكّل غناها، وحريتها وهو ما يمنحها فرصة الإستمرار في الحياة. وهذا يصدق أيضا من جهة أخرى، على كل تيار فكري، وكل رؤية للعالم، وكل تقليد. ولكن خلافا لما يعتقد "سكالفاري" و"مارتيلي"، فإن "غياب الإنسجام" هذا هو الذي يخلق بالتحديد الإنسجام الحر الذي ترتكز عليه هوية تقليد ما عبر الزمان والمكان إذا لم يكن يرغب في أن يتجمّد في إيديولوجية.

يتساءل "مارتيني" بطريقة أكثر دقة: "إذا كان الذين يملكون حججا قوية لسلوك أخلاقي يجدون صعوبات للإلتزام بهذا السلوك، فكيف سيكون الأمر بالنسبة للذين يملكون حججا ضعيفة غير يقينية ومتذبذبة ؟". لكن هل يمكن أن يكون الإيمان بالله "حجة"؟، بل أكثر من ذلك "حجة قوية" مقابل الحجج "الضعيفة، غير اليقينية والمتذبذبة" لغير المؤمنين ؟ إن الأمر لا يتجلى بهذه الصورة إلا للمؤمنين أصلاً، وهم ليسوا بحاجة إلى حجج للإقتناع.

يمكن للإيمان بالتعالي الإلهي أن يسكن "التجربة الأخلاقية"، ويمنحها خصوصيتها بلا شك، لكنه لا يمكن أن يكون "حجّة" لها؛ أي أن يشكل ضمانا أكيدا لشرعيتها بالنسبة للذين يعتقدون أن التجربة الأخلاقية ليست إلا إثباتا غير أكيد. يمكن للإيمان الديني فعلا أن يمنح الطمأنينة في لحظات الإضطراب الأخلاقي؛ كما يتمّ التعبير عنه أيضا بأي شكل آخر، ولا سيما حين نجد أنفسنا ضحايا أو شهوداً مشلولين أمام ظلم عيان: "إلهي لماذا تخليت عني ؟".

لا "المطلق" و لا النسبي: اللامشروط:

هناك مفهوم آخر كثيرا ما يُقرن مع مفهوم "الأساس" وهو يحضر بكثافة في النّقاشات حول القيم، يحيل بالنسبة للبعض على واقعة أكيدة، ويمثّل بالنسبة للآخرين

الوهم الأعلى: إنه "المطلق". لكن سواء أتم التأكيد أم التقليل من أهميته، فإن الجميع يحيل إلى هذا المفهوم وكأنه بديهي.

لكن ماذا يعني "هانز كونغ" Hans küng بهذا القول الذي يستشهد به "مارتيني" حين يؤكد أن "اللامشروط l'inconditionné هو وحده الذي يمكن أن يُلزم بطريقة مطلقة، وأن المطلق وحده يمكن أن يربط بطريقة مطلقة"؟. ماذا يعني "المطلق" هنا ؟ إذا كان يفهم من "المطلق" الإجبار مطلقا والإرغام إطلاقيا وأحاديا، فيكفي أن نلجأ إلى التجربة ليتجلى لنا الطابع غير الإجباري في التطبيق لهذا "المطلق" سواء بالنسبة للمؤمنين أو لغير المؤمنين. وقد وفق "أمبرتو إيكو" حين ذكر بذلك. وإذا كنا نعني بـ"المطلق" ما هو بديهي بالإطلاق، و"المؤسس" جيداً إلى حد يمنع كل تردد، كل تساؤل، كل صراع للتأويلات فيما يخص المضمون الخاص والملموس لكل حكم أو فعل يعبر بطريقة أفضل عن هذا "المطلق"، فإن تجربة المؤمنين تنفي أيضا هذا الإثبات. وتتجلّى لنا بوضوح المبررات التي من أجلها تمّت مطابقة اللامشروط مع "مطلق ما" «un absolu»، حيث إن هناك بحثاً عن ضمانة أكيدة ضد كل محاولات التلويث التي يسعى كل من الحكم والتطبيق إخضاع القيم لها. لكن بالمقابل، نبيح لأنفسنا إستعمال الوسائل غير الملائمة لمواجهة ما يمكن إعتباره مشكلا حقيقيا؛ حيث نظن أننا ننقذ القيم حين ندّعي تحريرها من وجهها السلبي المتعذّر تحجيمه (الإبهام، الخطأ أو النفي وتعدد التأويلات)، لكننا نحرمها بهذه الطريقة من بعدها الإستفهامي الجوهري الذي هو إنفتاح للحرية على ذاتها. في الواقع نحن ننفي الحرية بهذه الطريقة. بالمقابل هل يستوعب الطرف الآخر فعلا عمّا يتحدث عندما يتمّ التأكيد على أن "القيم لا علاقة لها بالمطلق" كما فعل أحد المتدخلين.

إن المطابقة المتعجلة للطابع اللامشروط للواجب الأخلاقي مع "مطلق ما" «un absolu» تخفي أو يمكن أن تخفي إنزلاق معنى ما، أي أن هناك تحجيرا

للامشروط بـ"تكييس "enkystage" شكله، -المنفتح في الأصل على إبداعية المضمون-، في مضمون تأويلي وحيد، ويؤدي هذا اللبس بطريقة شبه أوتوماتيكية إلى رد فعل معاكس. بما أن اللامشروط لا يمكن إنقاذه إلا بإلغاء حريتنا، فلننقد حرّيتنا بنفي اللامشروط. وبهذه الكيفية يُلقى باللامشروط مع المطلق مثلما يُلقى بالصبي مع ماء الحمام.

ماذا يعني مفهوم اللاّمشروط ؟ إنه ذلك الذي لا يملك أيّ شرط آخر إلا ذاته. اللاّمشروط هو الإقتضاء "exigence" الذي تكون غايته هو ذاته، والذي لا يمكن أن يكون وسيلة لغاية أخرى غير غايته هو. فإحترام الكرامة الإنسانية مثلا هو أمر لامشروط. أن يكون الإقتضاء الأخلاقي لامشروطا يعني أنه يملك معناه في ذاته ولذاته، وليس في آخر ولا لآخر غير ذاته، لا أقل من ذلك ولا أكثر. أن يكون إحترام الكرامة الإنسانية غاية، وأن لا يصير وسيلة لأي غاية أخرى لا يعني بالضرورة أن المحتوى الفعلي الممنوح لهذا اللاّمشروط يظهر لنا بجلاء لا ريب فيه، لكن بالعكس؛ لو تخاصمنا حول مصدر هذا الإقتضاء، وكيف وإلى أيّ حدّ يمكننا التحرّك من أجل صون هذه الكرامة، فإن هذه الصعوبة الجوهرية للقيم ليس لها تأثير على الطابع اللامشروط للمبدأ المتعالي للاحترام، الذي يفهم على أنه إحترام لتساوي كرامة كل واحد. بل يمكننا القول خلافا لذلك: إنه فقط لكوننا نأخذ اللامشروط مأخذ الجدّ فإن نزاعاتنا تحمل معنىً بوصفها نزاعا، ولا تنزل إلى مستوى التلاعب اللفظي التافه.

ينبغي علينا- إذا تعاملنا جديًا مع القيم تحرير اللاّمشروط الذي هو الواجب في صيغته القابلة للكونية - إحترام كرامة كل واحد -ككرامة متساوية- من اللبس الذي يطاله مع "المطلق". يبدو أن مفهوم المطلق بدل أن ينير النّقاش يؤدي إلى اللبس.

الواجب، لامشروط ومبهم:

إن الطموح إلى أساس متميّز ومتحكم فيه - الذي يفضي لدى البعض إلى موقع "مطلق" «un absolu»- مثله مثل الرفض الجذري لكل "مطلق" يعبر عن رفض لحالة من التناقض الظاهري. فالواجب الأخلاقي يتجلّى لنا بشكل غير منفصل باعتباره "لامشروطاً" و"مبهماً"، لكن كل واحد يظن أنه ملزم باختيار أحد البعدين ضد البعد الآخر. تأتي الصعوبة من كون لامشروطية الواجب تبدو وكأنها في صراع بين مبهمين: أحدهما يتعلق بأصل حِسّنا الأخلاقي، والآخر بصوابية الحكم والفعل التي بها نمنح الواجب وجودا واقعيا في هذا العالم. وهذا الإبهام الأخير يتجلّى لنا في صراع التأويلات، الذي يقابل بين أشخاص ومجموعات أشخاص مختلفة، وأيضاً في حالات صراع الوعي التي نعيشها.

إن الواجب هو "لامشروط"، وغير تام الإنجاز، أو "غير كامل" بالمعنى الذي يجعله لا يمنح مع قانونه العام قاعدة تطبيقه في الحالات الخاصة الملموسة؛ وهذا يعني إحلال اللاّمشروطية ضمن الشروط المتعدّدة والمتغيّرة للواقع المحسوس. لا يمكن إنقاذ "لامشروطية" الواجب بإنكار إبهامه الذي ليس هو إلا نمط إنفتاحه على شروط الواقع؛ لكن لا يمكننا أيضا إنقاذ الحرية باختزالها إلى نوع من الرضا بالقدر "amor fati" الذي يتمّ من خلاله الإعتراف بأنه ليس هناك غير "الشروط". فالواجب ليس بوعاء فارغ قابل لاحتواء مضمون أيّ تأويل، ولا هو كائن جوهري في تلاؤم تام مع ذاته، والذي يصبح إبتداء من هذه اللحظة "متعذراً لمسه"، بالمعنى الذي يجعل من كل محاولة لتحديده عن طريق الواقع لا تمثّل بالنسبة له إلا تحريفا.

يتعلق الأمر إذاً بالتفكير في الوقت نفسه في "اللاّمشروطية" و"الإبهام"، وفي الواجب المطلق والحرية: فشروط الواقع ليست عائقاً يقف من الخارج ضد لامشروط تام ومكتف بذاته، والذي لا يمكن أن يظهر إلا بعد أن يتعرض لامتحان الصقل إن لم

ينكر ذاته ببساطة، بل بالعكس، فإن شروط الواقع تشكل الشرط الفائض القيمة للواجب.

الكونية أو النسبية، تناقض قديم وعقيم:

عوض أن يمثل المؤمنين في مجموعهم، فإن "مارتيني" يمثل هنا *تفكيراً أو تأويلا* غالبا ما شاركه فيه بعض المثقفين المؤمنين أيضاً. فالقيم فالنسبة له غير ممكنة بدون الإحالة إلى أساس داخل تعال ما. وهذه الرؤية يتقاسمها معه أيضا بعض غير المؤمنين، وإن كانوا يعبّرون عنها بطريقة عكسية.. في غياب هذا الأساس المتعالي تصبح القيم مستحيلة؛ بمعنى أنه لا يمكن تبرير الإدعاءات في غيابها. لكن هذا الموقف الإرتيابي أو العدمي يتمّ التعبير عنه بصفة عامة كما جرى في هذا النّقاش، بطريقة ملطفة؛ وذلك بإنكار وجود وإمكانية نشأة قيم مشتركة بين البشر خارج تقلبات الزمان والمكان.

تجري النّقاشات المعاصرة حول القيم في غالب الأحيان تحت تأثير تناقض متداول يكرّر جزئيا فقط تقابل محاثية الذات لذاتها مع تعال الآخر الإلهي، أي تقابل الكوني والنسبي. فبينما يؤكد البعض على بعد الهوية والشرعية الكونية للواجب، معتقدين أنهم بذلك مرغمون على إنكار تغيرات الزمان والمكان، أو على الأقل التقليل من قيمتها فيما يخصّ معنى القيم، فإن البعض الأخر لا يريد أن يرى إلا التحولات وصراع التأويلات بين "قيم لانهائية" "incommensurable". إن "مرونة أو صلابة القيم الأخلاقية" هي الصورة التي يعكسها التناقض في هذا النّقاش، حيث كان الإثبات الأحادي الصارم في بعض اللحظات لموقف ما، يريح الآخر في نفس الموقف الأحادي. لقد كان "مارتيني" هو الوحيد الذي تحرّر من هذا الموقف التناقضي، حيث ركّز في تدخله الأول بالأساس على البعد الكوني، وفي تدخله الثاني كان أقل صرامة؛

حيث إعترف أن الظروف تتغير ومعها تتغير بعض القيم النسبية، لكن الإقتضاءات والسلوكات الأخلاقية الجوهرية تبقى ثابتة. فاليوم مثل الأمس، تحتفظ الوصايا العشر بمعناها كاملاً. اليوم مثل الأمس، من الأفضل لنا أن نكون أوفياء عوض أن نكون مخادعين، مستقيمين عوض أن نكون منحرفين، ومتحملين لمسؤولياتنا عوض أن نكون متهاونين، إلخ. إن الذي يتغيّر هو المبادئ الوسيطية " maximes intermédiaires"، التي هي تجسيد لهذه المبادئ العامة، وامتداد لهذا الوجود -الآخر الذي يجب إحترامه[10].

ما بقي هو إعادة تحديد العلاقة بين هذا الثابت وهذه القيم النسبية. إن افتتان العقول بالتناقض بين الكوني والنسبي ينتج إما عن نزعة وضعية مُبالِغة في تقييم العلاقة بين هذين البعدين للواجب، وإما هو ببساطة نتيجة الخلط بين هذين البعدين. وهو خلط لا يزيده إلا غموضا إسناده إلى "قيم" يفترض أنها بديهية حين تتم المطابقة بين بعد المبدأ النهائي -مبدأ احترام تساوي كرامة كل واحد، البعد الوحيد اللامشروط، لكن المبهم- والمبادئ الوسيطية المتعدّدة أو "القيم" التي فيها وبها يجد هذا المبدأ النهائي تحديده الأول، والتي تمثّل كلها تعبيرات مشروطة، -وبالتالي نسبية بهذا المعنى- لهذا اللامشروط.

يلتقي في الواجب، المرونة والصلابة، الإكراه والحرية، الكوني والخاص. وتتجلّى الصعوبة كلها في كون هذين البعدين لا يتعايشان "داخل" القناعة والفعل الأخلاقيين، بوصفهما كيانين منفصلين بعضهما عن البعض بفاصل إيجابي، الشكل من جانب والتحديدات من جانب آخر، بل يتداخلان فيما بينهما، ولا يتمّ ولا يتحقق أحدهما إلا في الآخر. إن الذي يصمد أمام نسبية الأزمنة والأمكنة لا يمكن له ذلك إلا ضمن وعبر "خضوعه لتنسيب" "relativisation" من طرفهما، وليس رغما عنهما أو ضدهما. إن اللاّمشروط *لا يتناقض* مع المشروط، بل يجد فيه نمطه الوحيد للتعبير؛ إن

المشروط هو نفسه اللاّمشروط الذي يصبح بعد تحديده قابلا للتحقيق praticable. لكن ولكي يتحقّق لا بد له من أن يتعرّض لمسخ "métamorphose" يجعله غير معروف من النظرة الأولى: المشروط هو تعبير غير مباشر، مخفف وغالبا - ولكن ليس في أكثر الأحيان كما تحاول أن توهمنا الإرتيابية التي تحيط بنا- صراعي للامشروط.

أن يتحكم الواجب بكيفية لامشروطة لا يعني، كما يظن في غالب الأحيان، أن يفرض نفسه بدون إعطاء أي اعتبار للزمان والمكان، أي للظروف المتغيرة للواقع، بل العكس، فإن الأمر يتعلق بإعطاء الإهتمام بجدية أكبر لهذه الظروف قصد إيجاد تحديدات للواجب تسمح لاقتضائه اللامشروط أن يحل فعلا ضمن هذه الظروف. وبما أن توتر الواجب بين تعبيرات الذات التي لا تسمح بتناغمها دائما بدون فائض يشكل أول هذه "الشروط"، فإنه يجب علينا أن نأخذ بعين الإعتبار أيضا ضرورة إيجاد حلول، وتسويات لتنازع القناعات. أو على الأقل لكل ما يتعلق بالحياة المشتركة في عالم مشترك.

لكن إنطلاقا من هذه اللحظة لن يعود الخلاف الحاسم بين مرونة أو صلابة القيم، ولكن بين المرونة التي هي تلويث للقيم؛ لكونها تمسّ المبدأ الذي يشكل وحده قوامها الأخلاقي، وبين المرونة التي ليست شرعية فقط، وإنما يتطلبها الواجب لكونها تنبثق عن مبدأ التوزيع العادل للاحترام الذي هو البعد الجوهري للواجب. إن التمييز بين المرونة المشروعة و"المشبوهة" يحتفظ دائما بمدلوله، بالرغم من أن الحدود التي تفصل بينهما غير مرسومة بدقة؛ مما يؤدي أيضا إلى صراع التأويلات في هذا الصدد.

الكونية التماثلية أو الإحراجات الكاذبة:

يستشهد "مارتيلي" دعما للموقف النسبوي بنص لبرنارد شو، الذي يعيد بأسلوبه الساخر المشهود له به، صياغة الواجب الكانتي على الشكل التالي: "لا تفعل

للآخرين ما ترغب أن يفعل بك، فقد لا يكون لهم نفس ذوقك" حتما. لكن التساؤل الذي يطرح: ما هو السبب الذي يمنعنا من أن نفعل للآخرين ما نرغب أن يفعل لنا، إن لم يكن بموجب إحترام شخصيتهم؟ وهذا بالضبط ما يحدث، فحين أريد للآخرين غير ما أريده لنفسي، فإني أريد لهم في هذه اللحظة ما أريده لنفسي، وهو أن يعاملوا كشخصية مستقلة ومساوية لي في الكرامة.

إن كونية الإقتضاء الأخلاقي لا تخصّ الحمولة المحدّدة للمبادئ العامة الذاتية للفعل، -أو القيم المعبرة عنه- ولا المضمون الأمبريقي للفعل، ولكنها تخص فقط المبدأ الذي يحدّد نهائيا هذه المبادئ العامة أو هذه القيم وهذا الفعل. ونضيف أيضاً، أنه باحترام الأذواق وبالأخص قيم الآخر المختلفة عن قيمي، وبإرادتي له ما يريده لنفسه ولا أريده لنفسي، أكون في هذه اللحظة أعامله بطريقة مماثلة لمستوى المبدأ المحدد. بهذا تصبح حكمة "برنارد شو" لا تخالف بتاتا مبدأ إحترام الكرامة الإنسانية في لاشرطيته وفي كونيته، بل تؤكده عن طريق إبراز وجهه الباطن. إن الواجب بوصفه مبدأ يُحدَّد بصيغة نهائية المبادئ العامة والأفعال، لا يحضر في هذه الأخيرة كمطابق للذات، ولكنه يعبّر عن نفسه فيها بطريقة تماثلية analogique. فإحترام الغير باعتباره مساويا لي في الكرامة يعني أن أريد له ليس نفس ما أريد لنفسي، ولا المختلف تماماً، ولكن المماثل؛ أي صيغة يمكن أن تكون مخالفة تماماً، - مع مراعاة "الظروف"-، لنفس المبدأ.

لكن بموجب هذا المبدأ نفسه و ليس نتيجة ضرورة خارجة عنه، يجب أيضا وضع حدود لهذا الإحترام.

لا يعني مبدأ التسامح إحترام "حرية الفرد"، وإنما يعني إحترام صيغ الحرية التي تملك وحدها الشرعية؛ أي الصيغ التي تخضع لشرط إحترام تساوي كرامة كل أحد. تصبح إذاً بهذا المعنى بعض هذه الإكراهات المفروضة على حرية الأفراد غير

مناقضة، ولا مقيدة لمبدأ التسامح فقط، بل هي من متطلبات تطبيق المبدأ نفسه؛ إنها حدود موضوعة لبعض ممارسات سلطة الحرية التي تناقض التسامح كمبدإ أخلاقي.

لا يمكننا أن نكتفي كما نفعل غالبا بتأكيد أن "التسامح لا قيمة له إلا في حدود معينة"، لأننا بهذه الطريقة نحجب الإختلاف الجوهري بين التسامح كمبدإ أخلاقي جوهري. وهذا النوع من "التسامح" الذي يدّعي القبول بأيّة ممارسة للحرية بدون تمييز، والتي يمكن أن تتحول بهذا الفعل أثناء التطبيق إلى ممارسة مضادّة للقيم.

لقد تمّ إدماج مسألة التسامح أيضا ضمن النّقاش الإيطالي، وذلك بطريقة كلاسيكية، فالتسامح هو ذلك المبدأ الذي لا يمكنه التلاؤم مع الإيمان.

لم يتمكن "مارتيني" من إستيعاب كيف يمكن لغير المؤمن الإستغناء عن مرجعية "مطلقة" بدون السقوط في النسبوية والعدمية المضادة للقيم؛ ونتفهم كيف أن ردود بعض غير المؤمنين عن هذا التساؤل تؤكّد قلقه. بالمقابل فإن غير المؤمنين يرون بالضبط في الإحالة إلى هذا المطلق حكما بالإعدام على الحرية والتسامح؛ أي لما يمثل في نظرهم الإقتضاء الأخلاقي بامتياز. فـ" كلوديو مارتيلي" يعتبر أن التسامح الذي نعدل به عن إكراه الآخرين لم يعد ممكنا إلا بغياب "قيم أخلاقية مطلقة وصلبة" على اعتبار أنها لا تستطيع منطقيا التعايش مع قيم أخرى. إذاً لا توجد هناك علاقة ضمنية بين التسامح ومبدأ "القيمة المطلقة للآخر"، ولكن علاقة إقصاء. وهنا أيضاً تتعجّل البرهنة في المطابقة بين "اللامشروط" وبين "المطلق"؛ وهي في هذا تتعرّض لإنحراف نتيجة حكم خادع يضع على قدم المساواة المبدأ اللامشروط لإحترام الكرامة الإنسانية مع القيم الأخرى، حيث عوض أن يكون هذا المبدأ قيمة من بين القيم الأخرى، يصبح بهذا المعنى الشرط المحدّد لكل القيم الأخرى. في الواقع إذا كان التسامح يتنافى مع "المطلق" باعتباره "الحقيقة الوحيدة والبديهية بإطلاق والجبرية"، فإنه بالعكس، لا يتنافى أصلا مع الطابع اللامشروط للواجب، بل ينبثق عنه. في عالم

متعدد، وانطلاقا من مبدأ التسامح الذي نعترف من خلاله لكل واحد بالحق المتساوي في التفكير والفعل بطريقة مستقلة، وبالتالي نعترف بطريقة غير مباشرة بضرورة وشرعية مرونة تخصّ "القيم"، يصبح مبدأ التسامح القائد الجوهري لولوج المبدأ "الصلب" لاحترام الكرامة إلى الواقع، مما يؤدي بطريقة رئيسة إلى الإستقلالية كسلطة للحكم والفعل من ذاتنا. لو تساءل "مارتيلي" بعمق عن المبرّرات التي تجعل التسامح مهماً بالنسبة له، فإنه لا بد أن يصل إلى النتيجة نفسها ، بدل البحث عن تفسير "عقلاني" بإرجاعه - أي التسامح- إلى حساب الربح والخسارة؛ إنه بهذا يحرم متطلبات التسامح من معناها الأخلاقي، ويضع نفسه في تناقض مع ذاته؛ لأنه باسم مبدأ التسامح يمكنه إدانة التعصّب الأصولي الذي لا يحتمل.

إذا فتحنا العلبة السوداء لمبدأ التسامح فلن نجد فيها بدون شك مبدأً جوهريا فقط، ولن نجد فيها كذلك صورية خالصة لنوع من القيم الإجرائية التي تصبح بموجبها شرعية، و"مرنة"، كل حمولة محددة للأخلاق وكل قيمة. إن مبدأ التسامح هو مبدأ وسيطي "intermédiaire" أو مشتق، يعبر بطريقة صورية عن المبدأ النهائي لاحترام الكرامة الإنسانية؛ وعوضا من أن تكون مبدأً صورياً فإن الكرامة الإنسانية هي مبدأ جوهري يبرز أو ينكشف للحكم الإنساني بطريقة "صورية"؛ أي أنه ينكشف في صيغة غير محدّدة، أو غير تامة الإنجاز في إنتظار التأويل أو التأويلات التي تحدّده.

القيم باعتبارها إعتقاداً:

نلاحظ مع بعض المساهمين في النّقاش الإيطالي أن التقابل الجوهري، فيما يخص مسألة أسس القيم هو خلاف مستعرض transversale بالنسبة للحدود الفاصلة بين المؤمنين، وغير المؤمنين. ويمكننا الآن القول بأن الأمر يتعلق قبل كل

شئ بتقابل بين الذين يبحثون داخل التجربة الأخلاقية نفسها عن معناها، ويستعدون لمواجهة بعدها المبهم، سواء أكانوا مؤمنين بالدين أم لا، وبين الذين ظلوا أسرى تفكير وضعي ينظر لـ"الأساس" كعلة خارجية، ويبحثون للقيم عن معنى يأتيها من خارجها. يبدو أن هناك ما هو أكبر من التقابل بين المؤمنين وغير المؤمنين، وهو التباين بين الأفراد، -مؤمنين أم لا-، الذين لهم الشجاعة للثقة في تجربتهم الأخلاقية -وهذا لا ينفي، بل بالعكس يستتبع لحظات الشك والتفكير النقدي- وبين الذين يصل بهم الأمر إلى درجة إنكار حتى تجاربهم الأكثر قوة؛ لأنهم لا يستطيعون "تعليل" أو "تأسيس" هذه التجارب.

"حتى الذين لا يدركون أو ينكرون نظريا الخير يمكنهم إختياره"، كما يلاحظ الكاردينال "مارتيني" في مساهمته الثانية حيث يبيّن بطريقة جد ذكية "الخلط المثير والمتكرّر بين نظريات أخلاقية "غير كافية" وبين سلوك أخلاقي إيجابي".

إن ما يحصل للعدمية النظرية المتعلقة بالقيم حين تمنح ظلها الإيديولوجي كما يبدو لسلوك صلف يتقدمها (بدلا من أن يكون مُؤَسّساً -أي هذا السلوك-، من طرف هذه العدمية)، يقع فيه أيضا الأفراد الذين يتعاملون بجدية مع القيم في تجاربهم الملموسة. على هؤلاء "العدميين" أن يتساءلوا عن السبب الذي يدفعهم إلى الإستمرار بهدوء، في التعبير عن سخطهم وتحمّسهم، وعن ما يدفعهم أيضا في الإستمرار بالإحساس بالندم، والنضال من أجل عالم أكثر عدلا، وإدانة الإغتصاب والتعذيب والمجازر البشرية، بل إدانة حتى الحالات الأدنى من الظلم مثل الإهانة التي يتعرض لها الإنسان ممن هو أعلى مرتبة منه مستغلا في ذلك موقعه السلطوي.

لقد وضع "مارتيني" يده على لب الموضوع لما ذكر بأن العدميين النظريين في تجربتهم الأخلاقية لا يعيشون أفعالهم، باعتبارها قرارات ضرورية -أقل ضرورة أيضا بالنسبة للنوع-، ولكن باعتبارها قرارات لها معناها في ذاتها. إن الشك النظري الذي يأخذ صيغة أكثر جذرية لدى البعض يفرض عليهم تبني حالة تشوش، بل حتى فصام وجودي بدون وعي منهم، نتيجة الرغبة في خلق إنسجام يُختزل إلى منطق هويتي "identitaire"؛ وهذه الحالة (من الفصام الوجودي) تدفعهم إلى تأكيد أن ما هم مستعدون للتطوع من أجله -ويتطوعون له بالفعل في بعض الأحيان بحماسة كبيرة- ما هو إلا وهم، "غريزة بيولوجية" أو أي قانون محايث. كل شيء يجري وكأن مسألة المعنى وبالأخص مسألة معنى القيم، مستمرة في دفع حركتها الذاتية بهدوء وعناد، بدون أن تزعزعها بتاتا المحاولات النظرية لإعادة النظر فيها. وهكذا يبدو أن الاندفاع الأخلاقي يستعيد حيويته دائما، وكأن أشكال فشل الفهم في محاولة إعطاء الضمانة الأكيدة لأساس جيد لم تؤثر عليه.

يؤمن "مارتيني" إيمانا قويا بمعنى القيم، ويثبت أساسها كحقيقة حيث يذكر في مساهمته الثانية أن: "السعي إلى تأسيس القيم فقط على ذاتها بدون الإحالة أو الربط مع أفق شامل وبالتالي الربط مع موضوع الحقيقة، يبدو كمحاولة من دون مخرج. لكن ما هو جوهر الحقيقة؟ [....] إن مسألة القيم تحيل إلى مشكلة الحقيقة"[11].

بما أن "سفرينو" لا يؤمن بوجود حقيقة نهائية، وبالتالي لا يؤمن بإمكانية التأسيس كحقيقة سواء تعلق الأمر بمعنى القيم أو بأي "تعال"، فإنه يجد نفسه مرغما على إنكار أي معنى للقيم؛ إنه يساوي بين الاختيار الأخلاقي والاختيار اللاأخلاقي. فهو يختزل اللاتساوق "dissymétrie" الجذري بين هذين

الاختيارين إلى معادلة معنى وشرعية، أحدهما قلق من أجل المعنى والآخر إنكار لمعنى هذا السعي؛ إنه يحسّ بلا شك بهذا اللاتساوق لكنه يبقى أبكم لأنه لا يملك "البراهين" للتعبير عنه. "إذا لم تكن هناك حقيقة أي إذاً لم يكن هناك أساس مطلق للحقيقة إذن، فإن رفض العنف نفسه بالتالي لا حقيقة له".

باختزاله المعنى إلى حقيقة والحقيقة إلى حقيقة يقينية، فإن "سفرينو" يطابق بين الإيمان واعتباطية الإيمان حين يعرّفه بأنه "يقين مطلق في أشياء غير بديهية". إنه يختزل بهذه الطريقة الإيمان في صورته الكاريكاتورية الأصولية، حيث يعتقد أنه له الحق في الجمع تحت نفس الإسم، بين الإيمان الذي يحرك محاولات البحث عن عدالة أكبر، وذلك النوع من الإيمان السطحي الذي يدفعنا إلى "الاعتقاد" أنه ليس هناك إلا العنف، مما يؤدي إلى القول أن النضال ضد العنف ليس أكثر دلالة من الإمتناع عن النضال.

في هذا الصدد، يشير "مارتيلي" إلى أن غير المؤمنين هم أنفسهم مؤمنون بشكل من الأشكال، حيث إن التزامهم بقواعد دولة الحق، والتزامهم الأخلاقي هو بمثابة الدين أو الإيمان، وليس بمثابة البرهان "démonstration" ولا حتى بمثابة الحجاج "argumentation" وحده. إن الواجب الأخلاقي، -أو صورته المسيحية المعبر عنها في الحب-، لا يتطلب أن يُستدل عليه منطقيا أو أن يُبرهن عليه، بل "أن تثبته الأعمال". إن دعوى التعامل الجدي مع القيم تفرض علينا الإيمان بالطابع الحتمي، أو اللامشروط للواجب الأخلاقي. غير أن هذا الإيمان لا يأخذ معنى معرفة زائفة ولا معرفة متدنية، ولكن معنى تلازم قابلية الإنفعال "réceptivité"، ومبادرة "الإيمان بـ"، وذلك كما يعرفه "بول ريكور" بطريقة جد معبّرة في كتابه: "الذات ذاتها كآخر"، حيث يقول عن هرمونيطيقا الذات التي هي دائما في نفس الوقت

الذات الأخلاقية: "إن الإشهاد "attestation" يقابل أساسا مفهوم الإبستيمي، مفهوم العلم، الذي يحمل معنى المعرفة النهائية والمؤسِّس ذاتيا "autofondateur" [...]. إن الإشهاد يتمثل هنا كشكل من أشكال الإيمان، ولكن ليس ذلك الإيمان الظني "doxique" بالمعنى الذي تحمل فيه doxa، -أي الإيمان-، سنداً "titre" أقل من الإبستيمي، من العلم، أو بالأحرى من المعرفة. إذا كان الإيمان الظني " croyance doxique" يندرج ضمن قاعدة: "أنا أومن أن"، فإن الإشهاد يندرج ضمن قاعدة "أنا أومن بـ" [...]. بالنسبة للإيمان "croyance"، أو إذا فضلنا التصديق "créance" [...] لا يمكن استدعاء أي هيئة إبستيمية أعلى."[12].

إن الإثباتات التالية: "الوفاء أفضل من الخيانة"، "لا تسرق"، "لا لن تكون هناك أوشفيتز[**] أخرى"، ليست من صنف الحقائق التي يمكن عرضها أمام معيار القابلية للدحض، إنها إقتضاءات أو مسلمات معنى، لا يمكنني أن أقرّر بـ"حرية" معناها أو لا معناها، رغم أنها لا تنتج كحقائق إلا بي ومن خلالي أنا، حتى وإن كنت "حرا" في عدم الامتثال لها. وهذه الإقتضاءات تستدعيني، أو تحثني، -أكثر مما تطلب مني "طاعة"-، كما هو الحال حين أتحرّى عن المعنى الخاص لأحكامي *"العملية"* وفيها، حول حالة محددة، عن طريق ممارسة حرة لقدراتي في الحكم على الأشياء، أو حين أشهد بالمعنى عن طريق إستعادة عملية حرة داخل أفعال متفردة دائما. لا يمكن الحكم بـ "صحة" الإثبات التالي: "لا لن تكون هناك أوشفيتز أخرى"؛ لكونه إثباتاً ذا معنى تام. وهذا ما نفترضه وما يجب على "سفرينو" نفسه إفتراضه إذا لم يرد أن يُحشر ضمن الذين يعتقدون أن مثل هذه الإثباتات ليست ذات معنى أكثر، ولا أقل من إثبات أن "بعض الناس لا يستحقون مصيرا أفضل من

الإبادة الجماعية". إن المعنى لا "وجود مستقل له"، فهو يستمر ويلح من خلال البحث القلق الذي لحظة إثباته يمنحه وحده وجودا فعليا.

يظن "سفرينو"،- مثل مجموعة من المتشككين-، أنه في غياب حقيقة موضوعية أو مطلقة فكل شيء إذاً "ليس إلا" شكلا من أشكال الإعتقاد، وكل أشكال الإعتقاد تتساوى، إنها كلها رمادية مثل أبقار الليل التي تحدّث عنها شيلنج. لكن يمكننا أن نستخلص من نفس هذه المقدمة النظرية خلاصة أخرى؛ إذا لم تكن هناك حقيقة موضوعية في القيم، فالفارق المهم لن يكون بين حقيقة موضوعية وإعتقاد ما ولكن بين إعتقاد وإعتقاد.

هل يمكن أن نمتلك قيما بدون أن نكون مؤمنين؟ نعم، إذا كنا نقصد بالإيمان ذلك الاعتقاد الديني، ثم لا، إذا كان المقصود ذلك النمط من الإيمان الذي هو تلك الطريقة الأصلية للروح الإنسانية في إنفتاحها على معنى الوجود، معنى الآخر، معنى الذات، والتي تتميز جذريا عن نمط إنفتاح العقل النظري. على غير المؤمنين بـ"الدين" أن يتعوّدوا على فكرة أنهم مؤمنون، أوليسوا إلا مؤمنين بالقيم. وعلى المؤمنين بالدين أيضاً أن يتعودوا على ما تلقنهم إياه تجربتهم الأخلاقية؛ وهو أن هذه الأخيرة لا تتخلّص أبدا من إبهامها، ومن توترها نتيجة إستنادها فقط إلى ما يمكن أن يكون عقيدة، والذي يؤوله البعض على أنه الأساس المطلق. فلا الوحي ولا الحجاج بكافيين كشرطين أساسيين لـ"تأسيس" القيم؛ أي لإخراج القيم من حدودها، لكن هذه الهشاشة تشكل في الوقت نفسه قوتها الخاصة. فلا يمكن البرهنة على القيم ولا "تأسيسها" إلا بالتسليم بوجود معناها وإثباتها من خلال الممارسة العملية، حيث لا وجود لها إلا من خلال هذا الإثبات لذاتها.

إن طموح البشر إلى أساس راسخ للقيم هو طموح له ما يبرّره، غير أن هذا لا يعني أنه يصل حتما إلى نتيجة. بل أكثر من ذلك؛ إن محاولة القيم للتخلص من جانبها المبهم يؤدي بها إلى إنكار ذاتها. في محاولتنا للبحث عن "أساس" أكثر قبولا من الذي يظهر في التجربة الأخلاقية من خلال تخليص الحكم، وكذلك الفعل من كل أدرانه ومن تردّداته، وغموضه وتوتراته، أخطائه وانحرافاته، يضيع منا السؤال الحقيقي: كيف نفهم المعنى الباطني لهذه الإمكانية البشرية الجوهرية التي هي القيم؟ كيف نفهم هذه التجربة المفارقة التي هي التجربة الأخلاقية كما هي في الأصل؟.

الهوامش:

* نشر هذا المقال بالمجلة الفرنسية "إسبري":

Anne-Marie Roviello, Fonder l'éthique ? A propos d'un débat italien sur le rôle de la religion, esprit, numéro 6, juin 1997

(1)dieu ou le sens de la vie, Paris, Grasset, 1996.-Luc Ferry, l'Homme

(2) Gianni Vattimo, Credere di credere, Garzanti, 1996

(3) تأسست مجلة ليبرال "liberal" سنة 1995 من طرف كل من "Ferdinando Adornato" و"Ernesto Galli della Logia" وهما من الوجوه البارزة لليسار الليبرالي الإيطالي. تسعى المجلة لتكون ملتقى للحوار حول القضايا الكبرى في عالم الثقافة والسياسة. أغلب المتعاملين مع المجلة ينتمون لتيار "Ulivo"، وهو إئتلاف للوسط اليساري يتميّز بكونه تجمّعا للكاثوليك والعلمانيين المنحدرين من الأحزاب الكبرى التقليدية (الحزب الديمقراطي المسيحي والحزب الاشتراكي) والجناح الإصلاحي للحزب الشيوعي، والحزب الديمقراطي الاشتراكي الذي تولى زمام المبادرة في تأسيس هذا الإئتلاف. ضمن هذا الإطار يمكن للكاثوليك والعلمانيين أن يعبّروا عن ميولاتهم وقناعاتهم واختياراتهم الموحدة بدون المرور بتشوهات الإنقسام السياسي القديم.

(4) الشخصيات المشاركة في الحوار هي كالتالي:

- الكاردينال كارلو ماريا مارتيني "Carlo Maria Martini" من الوجوه البارزة للكنيسة الإيطالية والمعروف برحابة الفكر.
- أمبرتو إيكو "Umberto Eco" لساني وروائي مشهور.
- إيمانويل سفرينو "Emanuele Severino" فيلسوف.
- مانليو سغلمبرو "Manlio Sgalambro" فيلسوف.
- أوجنيو سكالفاري "Eugenio Scalfari" المدير السابق لأكبر جريدة يسارية La Repubblica.
- أندرو مونتانيلي "Indro Montanelli" أحد كبار صحفيي الرأي الإيطاليين.
- كلوديو مارتيلي "Claudio Martelli" الأمين العام السابق للحزب الاشتراكي الإيطالي المنحل، ووزير سابق للعدل، ذو تكوين فلسفي.
- فيتوريوا فوا "Vittorio Foa" مختص في العلوم السياسية، ورجل سياسة يساري.

(5) إستعرت هذا التعبير من لوك فيري.

(6) إن "كانت" فيلسوف الواجب، هو الذي يرى في العقل الأخلاقي قدرة أعلى في الرغبة.

(7) يبدو لي أن كل فكر لفيناس "Levinas" هو تفنيد ضمني لتفسير المسألة باعتبارها "أساسا".

(8) قام هانس جوناس "H. Jonas" في مؤلفه الصغير Macht oder Ohnmacht der Subjktivität (Suhrkamp,1987) بإبراز الطابع المتناقض لمحاولة تفسير لغز باللجوء إلى العقل الذي هو في حد ذاته أكثر غرابة منه.

(9) إذا كان أغلب الغربيين اليوم يعتقدون باستحقاق كل شخصية إنسانية للاحترام، على الأقل على مستوى التصريحات الرسمية، فإن مسألة توسيع مدى هذا الاحترام ما زال محط نقاش وخلاف؛ بالنسبة للبعض يشمل هذا الاحترام الحيوان، وبالنسبة لثقافات أخرى (وإن كان بالنسبة لليفي ستروس نفسه منذ حوالي ثلاثة أو أربعة عقود) يشمل كل كائن حي.

(10) André Comte-Sponville, Petit Traité des grandes vertus, Paris, Puf, coll. "Perspectives critiques", p.35.

يجب التذكير أنه خلافا لما يعتقد كونت- سبونفيل وآخرون، فإن "كانت" لا يطرح لامشروطية الواجب في مقابل الأخذ بعين الاعتبار الشروط. إذا كان الفيلسوف "كانت" قد كتب *عقيدة الفضيلة* فمن أجل بناء علم أحوال الضمير الذي ينبثق عن الإعتراف بالإبهام من جهة، وبضرورة البحث من جهة أخرى ضمن كل حالة، -أي في مواجهة هذه الشروط الخاصة- عن النمط الأفضل لتحقيق الشروط؛ وهو ما يتضمن المهمة الجوهرية في البحث عن حد إقامة العدل في الحالات الخاصة الواقعية، لصالح مختلف المبادئ الوسيطية التي يمكن أن تشكل له عائقا. كان كانت لا يتخوف من مجابهة المفارقات، حيث لا يتورع عن القول بضرورة الاعتراف بأن الواجب الأخلاقي هو غير مشروط وفي نفس الوقت "واسع" أو "غير تام"، بالمعنى الذي يدع نوعا من الحرية للتأويل الذي يخص مسألة معرفة كيف وإلى أي حدّ يمكن تطبيق هذا الواجب؟.

(11) المداخلة الثانية

(12) Paul Ricœur, Soi-même comme un autre, Paris, Le Seuil, 1994, préface, p.33.

(**) أوشفيتز "Auschwitz" منطقة ببولونيا أقام فيها النازيون معسكرا للاعتقال تمت به أكبر محرقة لليهود حسب زعمهم.